

## أوائل المطبوعات العربية في تركيا وبلاد الشام

الدكتور وحيد قدورة

### وحيد قدورة

أستاذ مساعد في علم المكتبات

والمعلومات بالمعهد الأعلى للتوثيق -

جامعة تونس

- من مواليد مدينة صفاقس

بتونس، ١٩٥٥م

- دكتوراه في علم المكتبات

والمعلومات من جامعة السوربون

الوظائف

- اختصاصي معلومات بمراكز

المعلومات في فرنسا.

- أمين مكتبة بدار الكتب

الوطنية بباريس.

- اختصاصي معلومات بمركز

التوثيق في وزارة الشغل

بباريس.

- أول رئيس للاتحاد العربي

للمكتبات والمعلومات.

من نتاجه

- تقنيات المعلومات والاتصالات

في الوطن العربي، تونس،

١٩٩١م.

- بداية الطباعة في استانبول

وبلاد الشام تطور المحيط

الثقافي (١٧٠٦-١٧٨٧م)

زغوان، مركز سيرميدي

والرياض، مكتبة الملك فهد

١٩٩٢.

- عدد من المقالات في مجلات

عربية وأجنبية.

## ١ - الإشكالية والمنهجية :

لا يزال العلماء يعترفون إلى اليوم بأن المطبعة هي : «التقنية الأكثر فاعلية والتي لم يخترع الإنسان قط مثيلاً لها»<sup>(١)</sup> وهي إلى الآن أساس تقنيات المعلومات والاتصالات . إلا أن دورها لا يقتصر على الجانب التقني الصّرف ، بل إن لها بالإضافة إلى ذلك دوراً تاريخياً واجتماعياً وثقافياً بارزاً في حياة الشعوب منذ خمسة قرون . فالمطبعة ليست مجرد آلة «محايدة» ، فقد ساهمت بقسط وافر في التحولات الفكرية والاقتصادية والاجتماعية التي عرفتھا المجتمعات الأوروبية ، وهي أولى بوادر تفتح العرب على الاكتشافات والعلوم الحديثة التي عرفتھا أوروبا ، إذ تعدّ الطباعة أوّل تقنية سلمية مهمة يستعيرها العرب من الخارج بعد حوار وصراع طويل بين المصلحين والمحافظين .

وتسعى هذه الدراسة إلى الإجابة عن أسئلة البحث التالية :

- ما ظروف نشأة المطابع العربية باستانبول وبلاد الشام ؟ .
- كيف كان تصور المسلمين والمسيحيين العرب «لفن الكتابة الجديد» قبل تأسيس مطابعهم وبعد ؟ وبعبارة أخرى هل كانت المطبعة بالنسبة لهم أداة لنشر المعرفة وإثراء الحوار الحضاري مثل أوروبا أم أن لهم تصورات أخرى ؟ .
- ما حصيلة المطابع العربية التي تأسست في المشرق ؟ وما أهم خصائص الإنتاج الفكري المطبوع ؟ .

وفيما يتعلق بالمنهجية المتبعة فقد سلكنا منهج البحث التاريخي الاجتماعي بالاستناد إلى المصادر الأولية الآتية :

بواكير المطبوعات العربية : تمّ حصر هذه الكتب التي طبعت في المشرق خلال القرن الثامن عشر (١٧٠٦ - ١٧٨٧)<sup>(٢)</sup> ثم دراستها . وأغلبها محفوظ بدار الكتب الوطنية بباريس وبعض المكتبات اللبنانية والسورية الخاصة .

وتعدّ هذه المطبوعات مصدراً أوليّاً ثميناً للمعلومات حول ظروف الطباعة والتحقيق .

الأرشيّف : هناك وثائق أرشيفية مهمّة محفوظة بـ(الأرشيّف) الوطني بباريس و(أرشيّف) وزارة الخارجية الفرنسية (مثل مراسلات سفير فرنسا باستانبول) و(أرشيّفات) خاصة (مثل سجلات دير الشوير بלבّنان) .

المخطوطات : مثل «مخطوطات شبان اللغة» بدار الكتب الوطنية بباريس وهي ترجمات فرنسية للأعمال الأدبية التّركية في القرن الثامن عشر .

مصادر مطبوعة : مثل شهادات الرّحالة الأوروبيّين من القرن السادس عشر حتى التاسع عشر

## ٢- ظروف نشأة الطباعة بالمشرق في القرن الثامن عشر :

يمكن تناول الإطار التاريخي العام الذي ظهرت فيه المطبعة العربيّة بالمشرق في عنصرين رئيسيين هما :

- أسباب بعيدة أو جذور الطباعة العربية (من القرن التاسع حتى القرن السابع عشر) .

- أسباب مباشرة (القرن الثامن عشر) .

### ٢ ، ١ - الأسباب البعيدة أو جذور الطباعة العربية بالمشرق :

لم يكن فنّ الطباعة بأشكاله المختلفة غائياً عن المسلمين ، على الأقل من حيث درايتهم وإطلاعهم على أساليبه ، إن لم يكونوا قد مارسوه عملياً في بعض الفترات في أشكاله البدائية . فقد واكبوا التحوّلات التي عرفها فنّ الكتابة الجديد والمتجدّد ، منذ استخدام الألواح الخشبية حتى اختراع الطباعة بالأحرف المنفصلة . ويمكن تقديم ثلاثة عناصر لتفسير الجذور البعيدة للطباعة العربية .

٢، ١، ١ - أساليب الطباعة «البداية» عند العرب :

استخدم المسلمون فن الطباعة بالألواح الخشبية «Xylographie» منذ العهد العباسي الأول (القرن الثاني الهجري / التاسع الميلادي) وقد استعاروه من الصينيين الذين اخترعوه منذ القرن الثاني الميلادي<sup>(٣)</sup>. فطبعوا على القماش والورق ، وطوّروا أساليب هذا الفن إلى حدّ يجعلنا نتساءل : هل كان لهم مساهمة في اختراع أساليب الطباعة بالأحرف المنفصلة قبل الأوروبيين أو استخدامها على الأقل ؟ .

إن ما يبرز هذا التساؤل هو وجود إشارات عن مساهمة محتملة للمسلمين بالأندلس قبل سقوط غرناطة وبعده في تطوير طرق الطباعة :

● الإشارة الأولى ما ورد في مصدرين أندلسيين متأخرين يتحدثان عن فنّ غامض للطباعة ، الأول لابن الخطيب ، وعنوانه «الإحاطة في أخبار غرناطة» الذي ذكر أنّ أبا بكر القلوسي أهدى للوزير الحاكم كتاباً عن خصائص صناعة الحبر وأدوات الطباعة وهذا الكتاب فريد في محتواه<sup>(٤)</sup>.

أما الشهادة الثانية فهي لابن الأثير الذي ذكر في كتابه «الحلة السرية» أنّ بدرأ مولى الأمير عبد الله كان يكتب السجلات في داره ، ثم يبعث بها فتنطع<sup>(٥)</sup>.

وقد اختلف العلماء حول هاتين الشهادتين<sup>(٦)</sup> إلا أنه يبدو - أمام غموضهما ، وفي غياب مصادر أخرى - أن الأمر يتعلق بأسلوب متطور للطباعة بالألواح الخشبية .

● ترخيص السلطان العثماني بايزيد الثاني لليهود الذين استقروا بتركيا بعد ما طردوا من إسبانيا بإقامة مطابع عبرية لهم عام ١٤٩٤<sup>(٧)</sup> . وإذا كان باستطاعة اليهود الذين كانوا يقيمون بالأندلس ممارسة عملية الطباعة ، فهل سيكون ذلك عسيراً على المسلمين المهاجرين أيضاً من الأندلس ، وقد عرفوا بمهاراتهم في الصناعات المختلفة ومنها النقش على المعادن . وكذلك بإسهامهم العلمي في شتى مجالات المعرفة . وهنا نطرح السؤال الآتي : هل كان المسلمون الأندلسيون يحذقون فنّ

الطباعة بالأحرف المنفصلة منذ القرن الخامس عشر؟ . وهل قاموا بطباعة الكتب؟ .  
إن الإجابة الدقيقة عن السؤال رهينة باكتشاف مصادر معلومات أخرى ، قد تلقي  
الأضواء على حقائق جديدة . بقي فقط الإشارة إلى أن الموريسكيين قد يكونون  
ساهموا مساهمة فعالة في طبع كتب عربية بإسبانيا المسيحية .

إذا لم يكشف التاريخ عن آثار ومصادر توضح إن كان المسلمون قد استخدموا فعلاً  
المطبعة بالأحرف المنفصلة قبل القرن الثامن عشر فإن هناك أدلة كثيرة تبين أنهم كانوا  
يعلمون ويواكبون نشاط المطابع التي ظهرت بالصين ثم بأوروبا .

٢، ١، ٢ - طباعة الصين ثم أوروبا :

اختراع الصيني «بي شينغ» (Pi-Chin) سنة ١٠٤١ م طريقة الطباعة بالأحرف المنفصلة  
«أو المتحركة»<sup>(٩)</sup> . وهو أسلوب متطور جداً بالقياس إلى أسلوب الألواح الخشبية .  
لأنه يساعد على طبع آلاف النسخ من أي كتاب كان . إلا أن اختراع «بي شينغ» بقي  
محدوداً<sup>(١٠)</sup> لعدة أسباب ، منها استعماله للطين ثم الخشب الذي لا يعطي حروفاً  
رقيقة وجميلة ، وغياب آلات أو تقنيات تساعد على الإسراع في العمل . وهذا ما  
عمل الألماني «غوتنبرغ» على تفاديه بعد أربعة قرون من الزمن ، إذ استعمل المعادن  
(النحاس والفضة) لإعداد الحروف المنفصلة ، واستعمل المعصر (مثل معاصر  
العنب في ألمانيا) في عملية الطبع ، فطبع أول كتاب له عام ١٤٥٠ ، وهو الكتاب  
المقدس .

كيف اطلع المسلمون على هذا الاختراع؟

فيما يتعلق بمواكبة الاختراع الصيني :

هناك مصدر إسلامي من القرن الرابع عشر الميلادي يؤكد ذلك ، وهو كتاب  
«جامع التواريخ» للوزير فضل الله بن عماد بن علي رشيد الدين (١٢٤٧ - ١٣١٨ م)  
الذي تحدث عن زيارته للصين ومشاهدته للمطبعة ووصف الأحرف المنفصلة للغة

الكاتاي (Katai) .

فيما يتعلق بمواكبة الاختراع الأوروبي :

هناك شهادات عدة تبين ذلك من بينها :

● ترخيص السلاطين العثمانيين للأقليات الدينية (اليهود ، الأرمن ، اليونانيين . . .) بإقامة مطابع لهم بشرط عدم استخدام الحرف العربي<sup>(١١)</sup> .

● شهادة إبراهيم متفرقة الذي تحدّث في «رسالة وسيلة الطباعة» عن اهتمام العلماء المسلمين بفنّ الطباعة وتحمّسهم للاستفادة منه منذ عهد طويل<sup>(١٢)</sup> . إلا أن هناك عراقيل منعتهم من إقامة مطابع بالأحرف العربية المنفصلة قبل سنة ١٧٢٦ .

● شهادات لبعض العلماء المسلمين تبين تردّدهم في استخدام فنّ الكتابة الجديد<sup>(١٣)</sup> .

تؤكد هذه الشهادات اطلاع المسلمين على اختراع المطبعة في الصين وأوروبا . إلا أن موقفهم منها كان سلبياً ، إذ إنهم أعرضوا عنه مدة طويلة فسبقهم الأوروبيون في طباعة الكتب بالأحرف العربية . فماذا كان موقفهم من هذا الإنجاز ؟ .

٢ ، ١ ، ٣ - المطبعة العربية في أوروبا وصداها بالشرق :

طبع الأوروبيون كتباً عربية كثيرة منذ سنة ١٥١٤م وصل عددها إلى قرابة ١٦٧ كتاباً<sup>(١٤)</sup> قبل أن يظهر أوّل كتاب عربي مطبوع بالشرق . وتأسّست نتيجة لذلك مطابع للكتب العربيّة والشرقيّة في عديد من المدن بفرنسا وإيطاليا وهولندا وألمانيا وإنكلتره وغيرها .

ولئن كان هناك جزء من هذا الإنتاج المطبعي العربي موجّهاً للأساتذة والطلبة والمستعربين بأوروبا فإنّ جزءاً مهماً منه كان موجّهاً للشرقيين ، سواء منهم المسيحيون العرب أم المسلمون . فكيف كان موقف الطرفين :

## موقف المسيحيين العرب :

قبلت الطوائف المسيحية الكتب العربية المطبوعة في أوروبا التي أرسلت بها على الخصوص كنيسة روما وكذلك فرنسا عن طريق مبعوثين لها مبشرين من اليسوعيين . وقد وقف النصارى على فوائد المطبعة الثقافية والعلمية فوجدوا فيها أيضاً سنداً معنوياً مهماً لكونها من عمل «إخوانهم في الدين» الذين يريدون مؤازرتهم وتوحيد مجهوداتهم في نطاق مشروع الفاتيكان الكبير المتمثل في «الاتحاد مع الكنائس الشرقية المستقلة»<sup>(١٥)</sup> . وكانت علاوة على ذلك أداة فعالة لدعم «الهوية الثقافية» لهذه الطوائف التي تمثل أقليات دينية داخل العالم الإسلامي ، إذ إنها تؤكد على خصائص طوائفها وتجمع شتات كل طائفة حول كنيستها . ولم يقتصر موقف المسيحيين العرب على الترحيب بهذه الكتب ، بل عملوا على المشاركة في عملية طباعة الكتب العربية بطريقتين

- طريقة مباشرة : ساهم المارونيون في النشر العربي على الخصوص في مطابع روما وباريس ترجمة ومراجعة وطبعاً للنصوص الدينية واللغوية<sup>(١٦)</sup> .
- طريقة غير مباشرة : من جانب الأرثوذكس الملكيين الذين أرسلوا مخطوطات طائفتهم إلى الفاتيكان بغرض طباعتها بعد ترجمتها من السريانية إلى العربية ومراجعتها ، كما قدموا نصائح حول طريقة طباعة كتبهم<sup>(١٧)</sup> .

لكنّ الطوائف نفسها أبدت بالمقابل تحفظات على محتوى قسم من الكتب بسبب بعض الخلافات العقائدية بين الكنائس الشرقية وكنيسة روما ، الأمر الذي أدى أحياناً إلى رفض عدد من عناوين الكتب<sup>(١٨)</sup> . وقد تكون هذه الخلافات وراء رفض روما لآية محاولة مارونية تريد إقامة مطابع عربية بجبل لبنان ، إذ إنها لم تساند المشاريع التي قدّمها لها التلاميذ المارونيون . لطبع كتبهم في الشرق<sup>(١٩)</sup> . كما كانت وراء رفض روما طبع كتب أرثوذكسية بسبب اعتراض بطريرك أنطاكية على

مراجعتها .

### موقف المسلمين :

على الرغم من اقتناع عدد كبير من العلماء المسلمين بفوائد الطباعة إلا أن التردد والخوف من ردود فعل العلماء المحافظين حتى من العامة حال دون الاستفادة من خدمات المطبعة بل من استعمال الكتاب المطبوع بأوروبا مدة طويلة . فكانت نتيجة ذلك أن أحجم المتعلمون من المسلمين عن شراء كتب عربية علمية مطبوعة بإيطاليا مثل كتاب القانون الثاني في الطب لابن سينا الذي طبعته مطبعة الميديشي بروما سنة ١٥٩٣ . وكانوا يفضلون شراء الكتاب مخطوطاً رغم أن ثمن الثاني يساوي عشرة أضعاف ثمن الأول<sup>(٢٠)</sup> .

وكان رد فعل العامة شديداً ، اعتدى بعضهم على تاجرين أوروريين ، كانا قد أحضرا كتباً علمية عربية مطبوعة بروما ، وأتلفوها تعبيراً عن رفضهم التام للمطبعة وإنتاجها . وتدخل السلطان مراد الثالث بحزم لحماية التجار من جهة ولتشجيع بيع المطبوعات من جهة أخرى ، فأصدر لهذا الغرض فرماناً يرجع تاريخه إلى سنة ٩٩٦هـ = ١٥٨٨م<sup>(٢١)</sup> .

### ٢ ، ٢ - الأسباب المباشرة لاستخدام المطبعة العربية بالشرق :

بعد مرور أكثر من قرنين ونصف على اختراع «غوتنبرغ» ، وبعد تكثف الاتصالات بين العثمانيين والأوروبيين على جميع المستويات ، أصبح المناخ مهيئاً لإدخال فن الطباعة العربية إلى الشرق وللإستفادة أيضاً من جميع الاكتشافات والعلوم الحديثة .

٢ ، ٢ ، ١ - عصر التفتح والإصلاح : (١٧١٧ - ١٧٣٠)

هناك عدة عوامل تفسر تغير المناخ السياسي والاجتماعي والثقافي في اتجاه الإصلاح والتفتح على أوروبا المسيحية ومن أبرزها :



الهزائم العسكرية التي منيت بها الدولة العثمانية أمام روسيا والنمسا ، في بداية قرن الثامن عشر دفعت بالباب العالي إلى عقد اتفاقيات سلام ، مثل اتفاقية اساروفيتش عام ١٧١٨ مع النمسا ، خاصة أن السلطان العثماني الحاكم آنذاك هو أحمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠) كان مسالماً بطبعه وقد عين وزيراً لتنفيذ «سياسة سلمية» مع أوروبا ، هو الصدر الأعظم إبراهيم باشا داماد (١٦٦٢ - ١٧٣٠) . وكانت فترة السلام هذه فرصة للتفكير في أسباب ضعف الجيش والدولة ، ولإدخال بعض الإصلاحات .

- حركة الإصلاح ، وأخيراً وجدت نداءات المصلحين العثمانيين منذ أكثر من قرن آذاناً صاغية في عهد أحمد الثالث ، إذ نبه عديد من العلماء والوزراء إلى المخاطر التي كانت تهدد الدولة بسبب انحلال الجيش وإفلاس الخزينة والركود العلمي وغيره ، ونادوا بإصلاح المؤسسات الإدارية والعسكرية والاقتصادية والثقافية . ومن بين المصلحين نذكر حاجي خليفة وكوشي باي ولطفي باشا .

عمل أحمد الثالث على إعادة بناء الجيش والاقتصاد وعلى تنشيط الحركة الفكرية والعملية ، فأسس المكتبات وشجع العلماء على التدريس والتأليف . واستفاد سكان الامبراطورية من الانتعاش الاقتصادي في فترة السلم لتحسين ظروف عيشهم . ومنهم سكان استانبول الذين غيروا نمط حياتهم من الخشونة إلى الدعة والترفة والشاعرية ، وأطلق على هذه الفترة «لالي دوري» أي عصر الخزامى ، نسبة إلى زهرة الزنبقة التي جلبت من هولندا وانتشر غراسها في كامل حدائق العاصمة<sup>(٢٢)</sup> . وهذا النمط الجديد من الحياة كان قد استوحاه أبناء استانبول من مجتمع باريس ، كما صورهم لهم أحد السفراء العثمانيين .

٢ ، ٢ - ٢ - السفير العثماني بباريس : (١٧٢٠ - ١٧٢١)

كان لهذه السفارة تأثير مباشر استخدام تقنيات واكتشافات أوروبية من طرف

العثمانيين ومن بينها المطبعة . فقد كتب هذا المبعوث تقريراً مفصلاً ضمنه في كتاب<sup>(٢٣)</sup> يصف فيه جميع مشاهداته في فرنسا وعلى الخصوص مظاهر التقدم العلمي التي وصل إليها الفرنسيون . كما جاءت هذه السفارة في فترة مناسبة للاستفادة من جميع الفنون والاختراعات والعلوم الحديثة التي تعرفها أوروبا . وهو ما كان يرمي إليه الوزير إبراهيم باشا داماد إلى جانب مهمة السفير الدبلوماسية .

قام بهذه المهمة ضابط كبير يدعى محمد شلبي الملقب بـ «يرمسكز» أو «الثامن والعشرين» نسبة إلى رقم الوحدة العسكرية التي كان يعمل بها<sup>(٢٤)</sup> . زار محمد شلبي يرمسكز مطبعة بباريس ، إلا أنه لم يتحدث عنها في تقريره رغم أن أحد مرافقيه الفرنسيين يؤكد ذلك «فقد اهتم السفير بالآلات والمصانع وخاصة الميديات والمطبعة . . .»<sup>(٢٥)</sup> . ويرى سليم نزهت كرجك أن السفير «لا يتحدث عن المطبعة . . . لأنه لم يعدّها شيئاً جديداً عليه ، حيث نجد هناك فقرة في رحلته تشير إلى أن لديه فكرة كاملة عن طبع الكتب . . .»<sup>(٢٦)</sup> . ويبدو أن يرمسكز قد تحاشى الحديث عن المطبعة حرصاً منه على عدم إثارة المحافظين ، خاصة أنه كان يعد مع ابنه سعيد شلبي مشروع إقامة مطبعة باستانبول<sup>(٢٧)</sup> .

٢ ، ٢ ، ٣ - رسالة إبراهيم متفرقة أو الحوار حول المطبعة :

جاءت هذه الرسالة لتضع حداً لحالات التردد والخوف والرفض تجاه مشروع إدخال المطبعة في البلاد الإسلامية<sup>(٢٨)</sup> . فإبراهيم متفرقة من أبرز أنصار هذا المشروع ، عمل مع دعاة التفتح والتجديد على إقناع المحافظين بأهمية الأخذ من علوم أوروبا وتقنياتها ، ومن بينها الطباعة . فكتب «رسالة وسيلة الطباعة» حوالي عام ١٧٢٥ عدد فيها فوائد المطبعة كمضاعفة عدد الكتب وإحياء المؤلفات الإسلامية وانخفاض أسعار الكتب مما يسهم في تثفيف عامة الناس ، وكان في الوقت نفسه يبرز عيوب النسخ بخط اليد وتهاون الناسخين ، ويبيّن الأضرار التي حصلت للمسلمين

من جرّاء غياب المطبعة .

وقد أمكن لإبراهيم متفرقة أن يقنع أصحاب القرار في الدولة برأيه ، فحصل على موافقة شيخ الإسلام والعلماء المقربين للباب العالي<sup>(٢٩)</sup> ، ثم الوزير إبراهيم باشا والسلطان العثماني أحمد الثالث الذي رخص له ولسعيد شلبي بإقامة مطبعة بالحرف العربي بشرط عدم طبع كتب الشريعة والفقه الإسلامي (خط همايون بتاريخ ١٥ ذي القعدة ١١٣٩هـ = ١٧٢٦م) . وقد استند أحمد الثالث في قراره إلى فتوى شيخ الإسلام التي تجيز ذلك . وبذلك حصل إبراهيم متفرقة وسعيد شلبي على جميع الضمانات القانونية وعلى الدعم السياسي اللازم لإنجاز المشروع بعيداً عن أي ردود فعل قد يقوم بها المحافظون المعارضون للمطبعة .

٢، ٤ - علاقة المسيحيين العرب برومانيا :

لعبت هذه العلاقات بين الأقليات المسيحية داخل الامبراطورية العثمانية دوراً مباشراً في إقامة مطابع عربية مسيحية ببلاد الشام . وكانت هذه الروابط تجمع بين معتنقي المذهب الأرثوذكسي بسوريا وأوروبا الشرقية منذ أمد طويل ، ثم تطوّرت على نحو خاص في ظل الدولة العثمانية إذ كانوا يتبادلون الزيارات للنظر في شؤون طوائفهم الدينية والاجتماعية والثقافية<sup>(٣٠)</sup> .

قام بطريرك أنطاكية «أثناسيوس الثالث دباس» بزيارات عديدة إلى بلاد الفلاخ ومولدافيا ، لجلب الكتب الدينية اليونانية منها ، ثم للتقدّم بطلب إلى حاكمها لطبع كتب أرثوذكسية بالعربية . وقد جاء هذا الطلب بعد أن رفضت كنيسة روما طبع هذه الكتب بسبب الخلافات العقائدية كما رأينا .

ولئن نجحت المطبعة العربية التي تأسست ببوخارست سنة ١٧٠١ في نشر كتابين مسيحيين<sup>(٣١)</sup> ، فإنها لم تتمكّن من مواصلة عملها بسبب صعوبة الاتصال بين بلاد الفلاخ وبلاد الشام وبسبب غياب العرب المتخصصين بمراجعة النصوص العربية

### وإصلاح الأخطاء المطبعية .

لذلك فكر بطريك أنطاكية أنناسيوس الثالث دباس في إنشاء مطبعة قريبة من طائفته وبالتحديد بمدينة حلب ، لوجود جالية مسيحية مهمة بها ، ولأنها المقر الثاني لبطريك أنطاكية . خاصة أن حاكم رومانيا قسطنطين بسرابا برانكوفيانول وعده بتقديم المساعدات اللازمة له .

تفاعلت هذه العوامل البعيدة والقريبة لتهيئة المناخ المناسب لإقامة المطابع الأولى بالأحرف العربية في بلاد الإسلام . وهذه المشاريع تعني أن هناك تحولاً مهماً قد حصل في المجتمع العثماني ، إذ انتقل من الانغلاق إلى التفتّح ومن الجمود الفكري إلى الإبداع . وبعبارة أخرى فإن العالم الإسلامي بتبنيّه أداة ثقافية «ثورية» وهي المطبعة سيعرف نمطاً حضارياً جديداً .

### ٣- مطابع استانبول وبلاد الشام

بعد دراسة الظروف التي أحاطت بدخول المطبعة العربية إلى المشرق ، يتناول هذا الجزء بالتحليل المطابع التي أنشئت في القرن الثامن عشر ، وطرق تنظيمها إدارياً وفنياً ، وطرق تحقيق المخطوطات ، ومراقبة عملية النشر .

٣ ، ١ - إدارة المطابع العربية :

٣ ، ١ ، ١ - إدارة مطبعة استانبول : (١٧٢٦)

المدير : قام بتأسيس مطبعة استانبول وإدارتها سعيد شلبي وإبراهيم متفرقة ، وكلاهما موظف سام لدى الباب العالي . وهذا يدل على أن المشروع كان تحت إشراف سياسي مباشر تصوراً وتنفيذاً ومتابعة .

سعيد شلبي : ابن يرمسكز سفير الدولة العثمانية إلى باريس ، عمل كاتباً لوالده في أثناء السفارة ، وتقلّد فيما بعد مناصب دبلوماسية وسياسية مهمة (صدر أعظم عام

١٧٥٥) ، أعد مشروع إقامة مطبعة بالتعاون مع متفرقة .

إبراهيم متفرقة (١٦٧٥ - ١٧٤٥) : رجل أدب وعلم ودبلوماسي ، كان من أشهر رجال الإصلاح في الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر ، أصله مجري ، اعتنق الإسلام صغيراً ، درس علوماً كثيرة وتبحر فيها حتى لقب بمتفرقة أي متعدد المواهب . تحمّس - كما رأينا - للاستفادة من الاختراعات الحديثة وخاصة المطبعة ، ووجد في صديقه سعيد شلبي خير سند لتحقيق هذا المشروع الرائد .

لم تدم هذه الإدارة المشتركة للمطبعة طويلاً إذ سرعان ما انفرد إبراهيم متفرقة بتسييرها من سنة ١٧٣٠ إلى وفاته سنة ١٧٤٥ ، ثم خلفه في إدارة المطبعة تلميذه إبراهيم أفندي القاضي (١٧٤٥ - ١٧٥٦) ، وأغلقت بعد وفاته إلى سنة ١٧٨٤ حين أعاد فتحها أحمد واصف ومحمد راشد أفندي وهما كذلك موظفان ساميان لدى الباب العالي ، الأول مؤرخ البلاط والثاني رئيس الديوان .

كان من نتائج ارتباط المطبعة بالباب العالي أن تأثرت هذه المؤسسة بالتقلّبات السياسية ، إذ توقّفت فترات طويلة في أثناء الأزمات . كما تأثرت على الخصوص بتصوّرات رجال السياسة لدور المطبعة ، فلم تطبع إلا الكتب التي تتناسب مع هذه الرؤى ، كما سنرى ذلك لاحقاً .

العاملون : يبدو أنّ المطبعة استعانت في البداية بخبرات أجنبية للتشغيل<sup>(٣٢)</sup> ، ثم استعيض عنها بعمّال مسلمين بعد ما اكتسبوا الخبرة الفنيّة الكافية لحفر الأحرف وصبّها وتصنيفها وطبع النصوص ، وحفر الرسوم والخرائط على لوحات من نحاس . وكان يتجاوز عدد العاملين عشرة . كما عمل بالمطبعة في بعض المناسبات مسيحيّون ويهود مثل الأب اليسوعي «هولدمان» واليهودي «يونس»<sup>(٣٣)</sup> . وكان مدير المطبعة يتولّى توزيع المهام بين العاملين ويشرف على كامل عمليّات الطباعة .

### الموارد المالية: كانت متنوعة وتتمثل خصوصاً في:

- أموال خاصة من مؤسسي المطبعة، إبراهيم متفرقة وسعيد: وذلك حسبما ورد في خط همايون لأحمد الثالث عام ١٧٢٦، إلا أن ذلك لم يمنع الدولة من تقديم الدعم لهما.
- مساهمات الباب العالي: كانت ظرفية، وتمثلت في دفع أجور العمال عند تأسيس المطبعة حسب خط همايون لعبد الحميد الأول عام ١٧٨٤.
- هبات ومساعدات من رعاية العلم والأدب.
- ثمن الكتب المطبوعة: كانت تباع في البداية بثمان زهيد، لا يغطي التكلفة. ورغم ذلك فإنها لم تجد رواجاً، مما تسبّب في عجز مالي وفي تخفيض النسخ من ١٢٠٠ إلى ٥٠٠ نسخة فقط<sup>(٣٤)</sup>.
- لم تكن هذه الموارد كافية لاستمرار الإنتاج المطبعي، ولم تكن المداخل تغطي المصاريف، الأمر الذي تسبّب في نشوء عدة صعوبات كانت تؤدي إلى تعطيل المطبعة فترات طويلة.

٣، ١، ٢ - إدارة مطبعة حلب: (١٧٠٦ - ١٧١١)

المدير: يעדّ البطريك «أثناسيوس الثالث دباس» مؤسس مطبعة حلب ومديرها، فهو الذي أعد المشروع ونفذه خلال عمر المطبعة القصير وهو ست سنوات. وكان هذا البطريك رجل أدب، يحذق اللغتين العربية واليونانية، تولّى ترجمة عدّة كتب مسيحية إلى العربية وطبعها بحلب. واكتسب خبرة فنية في ميدان الطباعة عندما عمل بمطبعة بوخارست (١٧٠١ - ١٧٠٢).

العاملون: يبدو أن مطبعة حلب لم تلتجئ إلى فنيين أوريين، إذ اعتمدت على قدرات أبناء الطائفة الأرثوذكسية، وتذكر المصادر أن البطريك دباس كان يتولّى إعداد الأحرف العربية وتصنيفها وطباعة النصوص ومراجعتها<sup>(٣٥)</sup> بمساعدة مجموعة

من الفنيين ، لم تذكر لنا المصادر سوى أشهرهم وهو الشماس عبد الله الزاخر<sup>(٣٦)</sup> الذي سيكون له أثره الكبير في تأسيس مطبعة الشوير .

#### المواد المالية : تتكوّن هذه الموارد على الخصوص من :

- مساعدات أمير بلاد الفلاح (رومانيا) : ورد ذكر ذلك في مقدّمة أوّل كتاب طبع بحلب (كتاب الزبور ١٧٠٦) حيث يشيد البطريك بهذه المساعدة القيّمة .

- هبات أثرياء الطائفة الأرثوذكسيّة : حسبما ورد في مقدّمة كتاب المواعظ الذي صدر في سنة ١٧١١ .

- مساعدات رجال الدير : مثل البطريك «كيرلس الخامس» الذي مول طبعة كتاب «الباركليتيكي» عام ١٧١١ ، كما نصّت على ذلك مقدّمة هذا الكتاب .

لم تكن هذه الكتب مخصّصة للبيع بل وزّعت مجاناً على كنائس الطائفة ، وبذلك افتقدت المطبعة مصدراً مالياً مهماً لتمويل نشاطها وعدم الاقتصار على الهبات . وقد تكون الصعوبات الماليّة من بين أسباب توقّف المطبعة المبكّر .

٣ ، ١ ، ٣ - إدارة مطبعة الشوير : (١٧٣٤ - ١٨٩٩)

المدير : أسّس مطبعة الشوير بجبل كسروان بلبنان وأدارها عبد الله الزاخر (١٦٨٠ - ١٧٤٨) وكان عمل من قبل بمطبعة حلب ، ثم فرّ منها بعد اعتناقه للمذهب الكاثوليكي . وقد وجد مساعدة عظيمة من المبشرين اليسوعيين الذين يريدون مؤازرة الكاثوليكية بسوريا<sup>(٣٧)</sup> . ثم خلفه بعد وفاته تلميذه سليمان قطان (توفي ١٧٧٨) . أمّا الإشراف العام فقد تعهّد به رؤساء الرهبانيّة الشوريّة .

العاملون : ذكرت مصادر الرهبانيّة الشورية بعض أسماء العاملين مثل المديرين ، ويواكيم بن مطران ، وموسى ابن أخي سليمان قطان . أمّا أغلب المساعدين فهم من رهبان دير الشوير . وقد تلقّى كل هؤلاء تدريبات بإشراف عبد الله الزاخر . وبلغ عدد

العاملين في أثناء إدارة سليمان قطان سبعة ؛ ثلاثة رهبان يعملون في الطباعة واثنين في التصنيف واثنين في حفر الأحرف وسبكها<sup>(٣٨)</sup> .

#### الموارد المالية : تتمثل فيما يأتي :

- أموال خاصة من عبد الله الزاخر ، مؤسس المطبعة ، الذي يتتمي لعائلة ثرية .

- مساعدات مالية وعينية من المبشرين اليسوعيين وتجّار أوروبيين يعملون بالشرق .

- مساعدات من أثرياء الكاثوليكيين العرب<sup>(٣٩)</sup> .

- مساعدات عينية من الرهبانية الشورية التي كان رهبانها يعملون بالمطبعة مجاناً .

- ثمن الكتب التي كانت تباع بسعر مماثل لتسهيل ترويجها .

استطاعت هذه المطبعة أن تضمن بعض الموارد القارة لتأمين استمرار العمل بها ، وهذا عنصر مهم يفسّر بقاء المطبعة حتى نهاية القرن التاسع عشر .

١٤٣ ، ٤٠ - إدارة مطبعة بيروت : (١٧٥١ - ١٧٦٦)

لا يعرف عن هذه المطبعة إلا النزر القليل من المعلومات بسبب اختفاء مصادرها إثر زلزال هزّ المبنى الذي كان يؤويها بدير القديس «جيورجوس» عام ١٧٦٦ .

وهناك اختلافات حول مؤسس المطبعة ومديرها ، ويبدو أن بطريرك أنطاكية «سلفستروس القبرصي» (١٦٩٦ - ١٧٦٦) هو الذي أسّس المطبعة ببيروت ، وكان يرمي من ذلك إلى إحياء المشروع الذي بدأه سلفه «أثناسيوس دبّاس» بمدينة حلب . إلا أنه استعان في تنفيذه بأحد أثرياء بيروت الأرثوذكسيين وهو «يونس بن نيقولا الجبيلي» المعروف بأبي عسكر ، الذي يعتقد بعض الدارسين أنه هو مؤسس



المطبعة<sup>(٤٠)</sup> . لكن الذي تبين أن «سلفستروس» هو الذي لعب الدور الأساسي في إنشاء مطبعة بيروت ، إذ كانت لديه الخبرة الفنيّة والقدرات العلميّة والدينية التي تخوله ذلك<sup>(٤١)</sup> .

٣ ، ٢ - الجوانب الفنيّة للطباعة العربية :

اصطدمت تجارب المطبعيين الأوائل في المشرق بصعوبات عديدة من جراء افتقارهم الخبرة الكافية ، فكان أن تعثروا منذ البداية في إعداد الأحرف العربية ، وصعب عليهم صنع آلات الطباعة محلياً . كما جابهوا على مستوى آخر مشاكل لتحقيق المخطوطات ونشر الكتب .

٣ ، ٢ ، ١ - أحرف الطباعة العربية :

إعداد أحرف الطباعة المنفصلة :

تعتمد تقنية أحرف الطباعة المنفصلة التي اخترعها الصينيون ثمّ طورها الأوروبيون على إعداد طابع من معدن الفولاذ الصلب يستخدم لحفر قالب من نحاس ، وهذا القالب يصلح لسبك أمثلة الأحرف من الرصاص . وكانت هذه العمليات تستدعي خبرة فنيّة كبيرة في النقش على المعادن وفي صبّ أمثلة الأحرف . وهي مهارة لم تكن لتعوز صناع المعادن في المشرق وخاصة الصائغين منهم . ويلاحظ في هذا الإطار أن عبد الله الزاخر كان صائغاً مثلماً كان «غوتنبرغ» الألماني من قبل ، وقد تمكّن من نقش أحرف مطبعة الشوير وسبكها ، كما ساهم من قبل في إعداد أحرف مطبعة حلب<sup>(٤٢)</sup> . إلا أنّ هذه الأحرف كانت من خشب<sup>(٤٣)</sup> .

وفيما يتعلق بمطبعة استانبول فقد تمكّن إبراهيم متفرقة أيضاً مع فريق من الصناع المسلمين الماهرين من إعداد الأحرف العربية وكذلك اللاتينية<sup>(٤٤)</sup> .

المشاكل الفنية لأحرف الطباعة العربية :

من طبيعة الكتابة العربية التصاق الأحرف بعضها ببعض ، وإذا اتبعت طريقة التفريق

بين الأحرف كاللاتينية فإن النتيجة تكون سلبية ، إذ نحصل على نص عربي غامض . وقد أخفق الأوروبيون في الفصل بين الأحرف العربية ، فتركوه ، وتمكّن الناقشون من تحضير الأشرطة الرابطة «Les Ligatures» ونجحوا في طبع نص عربي شبيه بالمخطوط : نذكر «قرانجون» في روما (١٥٨٥) وعبد الله الزاخر في الشوير (١٧٣٤) وإبراهيم متفرقة في استانبول (١٧٢٦) . وهكذا فقد طوّعت المطبعة للكتابة العربية عوضاً عن أن تطوِّع الكتابة للمطبعة .

- إن شكل كل حرف عربي يختلف حسب موقعه في الكلمة : فصورة حرف الباء مثلاً في أول الكلمة تختلف عن صورتها في وسطها وآخرها . وهذا يتطلب حفر عدد مرتفع من القوالب لكل حرف عربي بخلاف الأحرف اللاتينية .

- إضافة قوالب للحركات : كالفتحة والهمزة والتضعيف . . . وللأشرطة الرابطة .

- هناك أحرف ترتفع فوق السطر وأخرى تنزل تحته وهذا يتطلب تخصيص مكان أكبر للنص العربي من النص اللاتيني .  
وينتج عن ذلك :

- إضاعة وقت كبير في تحضير الأحرف وتركيبها لطبع النصوص . فكان المطبعي في الشوير مثلاً يمر أمام طاولة طولها ١٨ قدماً قصد البحث عن الأحرف في صناديق القوالب .<sup>(٤٥)</sup> .

- خسارة حجم أكبر من الورق .

- تخصيص عدد مرتفع من العمال ومبالغ مالية عالية .

- الوقوع في أخطاء الكتابة خاصّة عند وضع العلامات على أحرف الطباعة العربية .

٣، ٢، ٢ - آلات الطباعة :

لئن تمكّنت المطابع العربية من إعداد الأحرف العربية بالاعتماد على الكفاءات المحلية ، فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لآلات الطباعة وهي تقنيات متطورة في ذلك العصر ، فالتجأت إلى استيرادها من أوروبا .

- استانبول : اشترى إبراهيم متفرقة هذه الآلات من أوروبا وعددها ست ، استعملت أربع منها لطبع الكتب واثنان للخرائط<sup>(٤٦)</sup> .

- حلب : يبدو أن «أثناسيوس دباس» حصل على آلات الطباعة من بوخارست بفضل العلاقات الروحية التي تربط الطائفتين الأرثوذكسية في سوريا ورومانيا .

- الشوير : اقتنى اليسوعيون الآلات من أوروبا وعلى الأرجح من فرنسا ، لفائدة مطبعة الشوير<sup>(٤٧)</sup> .

٣، ٢، ٣ - نشر الكتب : تحقيق المخطوطات ومراقبة الطباعات

حرص مشرفو المطابع العربية على نشر كتب خالية من الأخطاء بعد تحقيقها وعلى إخراجها في شكل طيّب ، حتى يدفعوا بالجمهور لاقتنائها عوضاً عن المخطوطات ، ويعملوا بذلك على تغيير عادات المتعلمين في القراءة . وكان هاجسهم الأوّل الخوف من وجود أخطاء في الكتب المطبوعة قد تسيء إلى المطابع وتكون فرصة سانحة للمحافظين للقضاء على مشاريعهم التحديثية . فعملوا على تنظيم عملية النشر بطرق مختلفة .

النشر باستانبول : أحدث السلطان أحمد الثالث لجنة رقابة للعمل مع مدير المطبعة على متابعة عملية النشر . كانت تتكوّن من أربعة علماء . وتمثّل مهمتها في :

- اختيار الكتب بغرض طبعها على أن تتجنّب طبع كتب الشريعة والفقه

## الإسلامي .

- طلب ترخيص من الباب العالي قبل طبع أي كتاب .
- تحقيق المخطوطات للوصول إلى النص الأصلي للمؤلف . وقد ذكر المؤرخ «تودوريني» مثلاً أن هذه اللجنة اكتشفت عدداً من الأخطاء في مخطوطات صحاح الجوهرى بترجمة تركية ، فحرصت على إصلاحها ، الأمر الذي تسبّب في تأخر إصدار الكتاب<sup>(٤٨)</sup> .
- إصلاح الأخطاء المطبعيّة قبل إعطاء الإذن بالسّحب ومراقبة إجراءات الطباعة كلها .
- النشر بالمطابع المسيحية : تولّى هذه المهمة مديرو المطابع بالتعاون مع رجال الدّين في الطائفة الأرثوذكسيّة (حلب وبيروت) وفي الحزب الكاثوليكي (الشويز) . وقد واجهتهم صعوبات جمّة لتحقيق المخطوطات الدينيّة . وتنقسم هذه المخطوطات إلى ثلاثة أقسام :
- مخطوطات مسيحية مقدّسة : مثل الإنجيل والزبور وهي كتب قديمة ترجمت إلى العربية منذ القرن الثامن الميلادي . وكانت مليئة بالأخطاء ، فقد ورد مثلاً في كتاب «الرسائل» المطبوع بالشويز عام ١٧٧٩ ما يأتي : «ثم اعلم أنّه إذا كانت نسخة الرسائل العربية مع كثرة الأيام والأعوام قد أدخل بها جهل الكتبة من العوام بعض تغييرات لجمل لم يدركوا فحواها فحرّروها بالغلط وتحريفات لألفاظ لم يفهموا معناها فصحفوها بنقل الحروف والنقط . . .» .
- مخطوطات مترجمة : هي نتيجة حركة تعريب واسعة قامت لدى الطوائف المسيحية في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، تمثّلت في نقل كتب من اليونانية أو السريانية أو اللاتينية أو الإيطالية إلى العربية . إلا أن

المترجمين لاقوا صعوبات جمّة بسبب عدم تضرّع بعضهم باللغة العربية (مثل اليسوعيين بالشويز) وبسبب صعوبة إيجاد مقابل عربي لمصطلحات مسيحية . فكان الأسلوب غير سليم واللغة أقرب أحياناً إلى العامية أكثر منها إلى الفصحى .

- مؤلفات معاصرة : مثل كتاب «البرهان الصريح» لعبد الله الزاخر (١٧٦٤) وكانت لغته سليمة .

كانت مهمة المحققين صعبة ، عملوا على مراجعة المخطوطات بالتبّت من المعاني أولاً ، وذلك بمقابلة الترجمات العربية بالأصل<sup>(٤٩)</sup> ثم بإصلاح التراكيب وأخطاء اللغة ثانياً<sup>(٥٠)</sup> ، قد وصل بهم الحدّ إلى إعادة ترجمة كتب بسبب عدم استقامة معانيها<sup>(٥١)</sup> .

تولّى تأسيس المطابع الأربع وإدارتها رجال العلم ، إلا أنّهم ارتبطوا بالسلطة السياسية (استانبول) أو السلطة الدينية المسيحية (حلب والشويز وبيروت) وذلك للحصول على الدعم الأدبي والمادي .

وقد جابهت هذه المؤسسات عدّة عراقيل خصوصاً في البداية بسبب نقص الخبرة الفنيّة وقلة الموارد الماليّة . إلا أنّها تمكّنت من التغلّب على معوقات أساسية مثل إعداد الأحرف العربية ، والتمويل ، أو مراجعة المخطوطات ومتابعة عملية النشر .

#### ٤ - حصيلة النتاج الفكري المطبوع :

لم يكن عدد الكتب المطبوعة في القرن الثامن عشر كبيراً (١٧٠٦ - ١٧٨٧) بسبب عديد من المعوقات التي اعترضت سبيل المطابع ، ومنها المعوقات الفنيّة والمالية والسياسية ، إلا أنّه يمكن بالقراءة التحليليّة لهذا الإنتاج الحصول على فكرة واضحة عن محتوى المطبوعات وأسباب اختيار المواضيع ، وبالتالي معرفة

اتجاهات النشر وتصور المشرفين على المطبعة لأثر «فن الكتابة الجديد» في التحولات التي يشهدها المجتمع العثماني في تلك الفترة .

٤ ، ١ - خصائص نتاج مطبعة استانبول :

نشرت هذه المطبعة كتباً في أربع لغات هي العربية والتركية والفارسية والفرنسية . وعلى الرغم من قلة عدد الكتب العربية المطبوعة ، إلا من المهم دراسة ملامح كامل نتاج مطبعة استانبول لمعرفة نتائج أول مشروع من هذا النوع ينجزه المسلمون .

٤ ، ١ ، ١ - نموّ النتاج المطبعي :

نشر في استانبول ٢٠ كتاباً على امتداد ٦١ سنة (١٧٢٦ - ١٧٨٧) أي بمعدل كتاب واحد كل ثلاث سنوات . إلا أنّ التوزيع الفعلي لهذا النتاج عبر السنين لا يتطابق مع هذا المعدل ، إذ شهدت الست عشرة سنة الأولى إصدار ١٧ كتاباً ، في حين لم ينشر سوى كتاب واحد خلال أربعين السنة الباقية (١٧٤٦ - ١٧٨٤) بسبب الأزمات السياسية والصعوبات الماديّة وموت مدير المطبعة إبراهيم متفرقة .

٤ ، ١ ، ٢ - لغات النتاج :

صدر ١٥ كتاباً باللغة التركية ، و٥ كتب ثنائية اللغة : ثلاثة بالتركية والعربية ، وواحد بالتركية والفارسية ، وواحد بالتركية والفرنسية . وتحمل الكتب العربية الثلاثة المترجمة عناوين فحسب (أعيد طبع أحدها) .

- صحاح الجوهري مع ترجمة تركية لوانقولي سنة ١٧٢٨ ثم سنة ١٧٥٦ .

- إعراب الكافية لابن الحاجب مع ترجمة تركية لزانبي زادة : ١٧٨٥ .

٤ ، ١ ، ٣ - مواضيع الكتب أو اتجاهات النشر :

إذا استندنا إلى أقوال أنصار «فن الكتابة الجديد» فإن اهتمامهم الأساسي عند إنشاء المطبعة ، سينصب على إنقاذ كتب تراث المسلمين المهددة بالانقراض نظراً للإهمال الذي أصاب العديد منها ، ثم على الإكثار من الكتب العلميّة والأدبية

الحديثة لنشر المعرفة وتوعية المجتمع الإسلامي والنهوض به<sup>(٥٦)</sup>. وهذه الآمال المعلقة على المشروع كانت مبنية على ضوء ما حققته المطبعة بأوروبا من إنجازات . فهل تمكن هؤلاء من تحقيق مشروعاتهم المعرفي الإصلاحية ؟ .

كانت مواضيع الكتب المطبوعة على النحو التالي :

- التاريخ : ثلاثة عشر كتاباً ، ثمانية منها تتعلق بتاريخ الدولة العثمانية (حوليات عثمانية) ، وأربعة تتعلق بتاريخ مصر وبلاد فارس وأمريكا وتيمورلنك ، وواحد يتمثل في جدول زمني للتاريخ الإسلامي .
- النحو واللغة : أربعة كتب ، معجمان في اللغة (الصحيح للجوهري وفرهنگ شوري بالفارسية) وكتابان في النحو .
- الجغرافيا : كتابان ، الأول «مرآة العالم» (جهان نما) والثاني حول البوصلة (فيوصات مغناطيسي) .
- السياسة : كتاب واحد وهو أصول الحكم في نظام الأمم (إصلاحات عسكرية) .

في غياب مؤلفات الشريعة الإسلامية التي لم يسمح بنشرها ، اتجهت عناية إبراهيم متفرقة ومن خلفه نحو كتب اللغة والعلوم الإنسانية وخاصة منها المصنفات التاريخية التي حصلت على نصيب الأسد . ونلاحظ تبايناً واضحاً بين خطاب أنصار «فن الكتابة الجديد» وطبيعة إنجازاتهم بعد تأسيس مطبعة استانبول ، إذ لا يوجد من أمّهات الكتب سوى النزر القليل (مثل الصحيح) ومن كتب العلم الحديث سوى كتابين في الجغرافيا ، في حين انصب اهتمام مشرفي النشر على إصدار كتب التاريخ وخاصة الحوليات العثمانية . وذلك لخدمة غرضين :

- تمجيد إنجازات الأمراء العثمانيين وخاصة انتصاراتهم العسكرية ، وهذا يعني أنه تم توظيف المطبعة لإضفاء الشرعية على الحكام الأتراك

بإبراز أحقيتهم التاريخية في السلطة .

- الدعوة إلى إصلاح هياكل الدولة التي أصابها الضعف والخلل ولاسيما المؤسسة العسكرية والاقتصادية . فقد تعرضت كتب التاريخ لمظاهر الانحلال في الدولة إلى جانب تناولها للمكاسب التي حققها السلاطين ، ودعت إلى ضرورة إصلاح الوضع السياسي (حوليات أحمد نعيمة ١٧٣٤) .

استخدمت المطبعة منبراً للمجددين من أجل المناداة بالإصلاح قصد النهوض بالدولة وبالمجتمع ، ونبهت إلى خطر اندثار الدولة العثمانية مثلما سقطت الدولة الصفوية بفارس (تاريخ سياح ١٧٢٩) ، وقد ذهب الأمر بإبراهيم متفرقة إلى طبع كتاب له يدعو فيه إلى إدخال إصلاحات جوهرية على الجيش (أصول الحكم في نظام الأمم ١٧٣١) .

كانت المطبعة أداة لخدمة الأغراض السياسية أكثر منها لخدمة الأغراض العلمية والاجتماعية . ويمكن تفسير هذا التوجه بالارتباط الوثيق لمطبعة استانبول بالباب العالي وبمشاغله وأزماته (ثورات الانكشارية ومقتل السلاطين والتدهور الاقتصادي ... ) .

٤ ، ٢ - خصائص نتاج مطابع حلب والشويرة وبيروت :

٤ ، ٢ ، ١ - نموّ النتاج المطبعي :

نشرت الطوائف المسيحية ٢٩ كتاباً خلال ٨١ سنة (١٧٠٦ - ١٧٨٧) من بينها ١٣ كتاباً أعيد طبعه ، أي بمعدل كتاب واحد كل ثلاث سنوات ونصف ، إلا أنّ حصص المطابع في هذا النتاج لم يكن متوازنة :

- حلب : ثمانية كتب ، من بينها كتابان أعيد طبعهما (١٧٠٦ - ١٧١١) .



- الشوير : تسعة عشر كتاباً من بينها أحد عشر كتاباً أعيد طبعها (١٧٣٤ - ١٧٨٧) .

- بيروت : كتابان (١٧٥١ - ١٧٦٦) .

ويلاحظ أنّ مطبعة الشوير تتصدّر هذا النتاج ، إذ استطاعت أن تتيح استمرار النشاط رغم بعض الصعوبات الظرفية ، في حين تعطلت مطابع حلب وبيروت بسرعة للأسباب المذكورة سابقاً .

٤ ، ٢ ، ٢ - موضوعات الكتب أو اتجاهات النشر :

لم تنشر هذه المطابع إلا كتباً دينية مسيحية وهذا الاختيار يعود إلى ارتباطها - على عكس مؤسسة استانبول - بالكنائس الشرقية . وتنقسم هذه المواضيع الدينية إلى ثلاثة أقسام :

\* نصوص مقدسة : مثل الإنجيل والمزامير .

\* كتب الأخلاق والزهد والصلاة : مثل المواعظ والتأملات الروحية .

\* كتب الدفاع عن المسيحية : مثل كتاب التعليم المسيحي .

ويرمي رجال الطائفتين الملكية الأرثوذكسية والكاثوليكية إلى تحقيق الأغراض الآتية حسبما ورد في مقدّمة بواكير مطبوعاتهم لتبرير هذا الاختيار :

- توفير الكتب الدينية للرهبان ، لأن المخطوطات كانت نادرة جداً .

- تقديم الكتب التي تحتاج إليها الكنيسة باللغة العربية التي انتشرت انتشاراً واسعاً في تلك الفترة ، لتعويض عن اللغة اليونانية والسريانية في الكنائس السورية .

- جمع شتات الطائفة حول رواية واحدة للنص الديني والقضاء على الانحرافات .

- تعليم اللغة العربية للأطفال : وهذا الهدف رغم أنه ثانوي قياساً بالأهداف السابقة إلا أن مطبعة الشوير كانت تشدد عليه فوضعت الحركات والعلامات في كتاب المزامير والرسائل لهذا الغرض .

لم تهتم المطابع المسيحية بنشر كتب الآداب والعلوم الحديثة ، بل اتجهت نحو طبع الكتب الدينية وذلك بغرض إثبات هوية الطوائف المسيحية التي تمثل أقلية داخل العالم الإسلامي الشاسع ، وتوحيد صفوف أبنائها بتقديم نصوص دينية موحدة ، وللقضاء على الانشقاق بين المسيحيين العرب ، لكن مع اختلاف وجهات نظر الأرثوذكس والكاثوليك حول هذه المسألة .

كان لمحدودية التناج المطبعي من جهة ومحدودية تصورات المشرفين على النشر العربي دور أساسي في ضعف تأثير المطابع العربية الأولى في الحياة العلمية والثقافية والاجتماعية بالشرق . إذ اتجهت مطبعة استانبول لخدمة الأغراض السياسية أكثر مما اتجهت لخدمة الأغراض العلمية ، ومطابع حلب وبيروت والشوير لخدمة الأغراض الدينية والسياسية لطوائفها ، فلم تحقق التأثير والإشعاع اللذين وصلت إليهما المطبعة بأوروبا في بداياتها .

##### ٥ - خاتمة :

على الرغم من محدودية تأثير المطبعة ، إلا أن إقامة مثل تلك المطابع في الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر تمثل تحولاً جذرياً في المجتمع العثماني إذ إنها تعكس مدى عزم المسلمين والمسيحيين على التفتّح على الحداثة وعلى الاكتشافات العلمية القادمة من أوروبا ، ومدى حرصهم على إصلاح الأوضاع الاجتماعية والتعليمية المتردية بداية من استخدام أداة ثقافية «ثورية» هي آلة الطباعة . وهذه البداية كانت صعبة للغاية لأنها لاقت معارضة من طرف المحافظين ، وجابهت كذلك صعوبات فنية ومادية كبيرة ، إلا أن هذا «الاختراق» الذي حصل يمثل بداية يقظة

العرب والمسلمين إذ كانت نموذجاً يقتدى به لتأسيس مطابع عربية في القرن التاسع عشر ، كما كانت وسيلة لتغيير عادات القراءة الثقافية لدى المتعلمين ولبث الأفكار الإصلاحية . ويكون من المناسب التأريخ لبداية النهضة العربية بمطلع القرن الثامن عشر وليس بزمن وقوعها أي في منتصف القرن التاسع عشر .

## الحواشي

(1) DESCHATELETS (Gilles).- L'enseignement des technologies de la D.B.A. ou l'exploitation des technologies dans l'enseignement de la D.B.A.- Revue maghrébine de documentation, n° 6-7, 1992, p.18.

(٢) اعتمدنا في عملية الحصر الببليوغرافي على ببليوغرافيات راجعة أساسية أهمها :

- SCHNURRER (C.F).- Bibliotheca arabica.- Halae ad-Salam, 1811, reeditee a Amsterdam Oriental press, 1966.

- Bibliotheque de SYLVESTRE DE SACY par Daunou.- Paros 1843-1847.

- ZENKER (J.Y).- Bibliotheca orientalis.- Leipzig, 1846.

(3) DAHL (Svend).- Histoire du livre.- Paris : Poinat, 1967.- p.8

(4) HAMMER-PURGSTALL (J).- "SUR UN passage cuireux de l'lhatet sur l'art d'imprimerie chez les arabes en Espangne".- Journal asiatique, 1852, n° 2, 4 serie, t. xx, pp. 252-255.

(٥) صدر السابق .

(٦) يرى فيليب حتي أنّ هناك فعلاً مطبعة بدائية إلا أن أسلوبها بقي مجهولاً، أما قايمن فيلاحظ أن كلمة طبع لا تحمل المعنى المعروف اليوم . انظر : قدورة (وحيد) .- بداية الطباعة العربية في استانبول وبلاد الشام : تطور المحيط الثقافي ١٧٠٦-١٧٨٧ .- زغوان - تونس : مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات ؛ الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٩٩٣ .- ص ٧٧-٧٨ .

(٧) ذكر ذلك الرحالة نيكولا دي نيكولا الذي زار استانبول عام ١٥٥١ .

Les navigations, peregrinations et voiyages faits en la Turquie.-Antwerp, 1576, p.246. Cité in LEWIS (Bernard).- The Emergency of modern Turkey.-Oxford University Press, 1961.- p.42.

(٨) انظر ببليوغرافية شنورر .

(٩) ستيفن شيفتش (الكسندر) .- تاريخ الكتاب ، ترجمة محمد لأزناووط .- الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٩٣ (عالم المعرفة ، ١٦٩-١٧٠) القسم ٢ ، ص ١٤-١٦ .

(١٠) انتشر هذا الاختراع في جنوب شرقي آسيا واستعمله الأتراك الينغور عام ١٣٠٠ . انظر المصدر السابق .

(١١) أسس اليهود مطابع عبرية لهم باستانبول وسالونيك عام ١٤٩٤ ، وأقام الأرمن أول مطبعة لهم بمدينة سيفيا عام ١٥٦٧ ، أما اليونانيون فقد أنشأوا مطبعة باستانبول عام ١٦٢٧ .

(١٢) نشرت هذه الرسالة في أول كتاب أصدرته مطبعة استانبول عام ١٧٢٨ وهو صحاح الجوهري . وفي مجلة المكتبات الفرنسية ترجمة لهذه الرسالة .

"Mémoire sur l'utilité de l'établissement de l'imprimerie a Constantinople par Ibrahim Muta-farrika "in : Documents sur l'imprimerie á Constantinople" publiées par H.Omont.-Revue des

Bibliothèques, 1895, pp. 193-200.

(١٣) نذكر هنا على سبيل المثال الحوار الذي دار بين طبيب مصري والرحالة ستوكوف حول مزايا المطبعة وعيوبها . انظر :  
STOCHOVE (Chevalier Vincent).-Voyage du Levant.-Bruxelles : A. Velpius, 1650.

(١٤) قدورة (وحيد) .- بداية الطباعة . . . المصدر نفسه ص ٤٢ .

(١٥) شيخو (لويس) .- الطائفة المارونية والرهباتية اليسوعية .- بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٢٣ . ص ٨٢ .

(١٦) برزت نخبة من تلاميذ المعهد الماروني بروما (تأسس عام ١٥٨٤) في ميدان الطباعة ، من بينهم : جبرائيل الصهيوني وإبراهيم الحاقلائي وجرجيس عميرة ويعقوب هلال . انظر :

RAPHAEL(Pierre).-Le role du Collège maronite romain dans l'orientalisme aux XVI<sup>e</sup> et XVII<sup>e</sup> siecles.-Beyrouth : Université St. Joseph, 1950. p24.

(١٧) اتصل عبد الكريم كرمي بطبرك أنطاكية بمطبعة مجمع نشر الإيمان بروما بغرض طبع كتب الطائفة الأرثوذكسية وبعث إليها رسالة بعنوان بيان طبع الكتب كيف يكون .

NASRALLAH(Joseph).-Histoire du mouvement litteraire dans l'eglise melchite.-Paris : chez l'auteur, 1979. vol. IV p.70.

(١٨) قدورة(وحيد) .- بداية . . المصدر نفسه ، ص ٥٤-٥٦ .

(١٩) مثل مشروع ميخائيل المطوشي عام ١٧٠٠ الذي أراد طبع كتب دينية بجبل لبنان لفائدة الكنيسة المارونية .

(٢٠) هذا ما ذكره المستشرق فالان عند تقديمه لموسوعة هربولر .

HERBELOT.-La bibliotheque orientale.-Paris, 1697.-f.14.

(٢١) نشر هذا القرار في آخر صفحة من كتاب تحرير أصول أقليدس ، ترجمة نصير الدين الطوسي .- روما : مطبعة الميدينسي ، ١٥٩٤ .

(٢٢) تحدثت زوجة سفير انكلترا باستانبول عن حياة البذخ هذه في كتابها :

MONTAGU(M).-L'Islam au peril des femmes : une anglaise en Turquie au XVIII<sup>e</sup> siecle.-Paris : Maspéro, 1981 (La decouverte) I<sup>e</sup> edition 1757.

(٢٣) ترجم كتابه إلى الفرنسية :

EFFENDI(Mehmet Yirmisekiz Chelebi).-Le paradis des infidèles:un ambassadeur ottoman en France sous la Régence.-Paris : Maspéro, 1981 (La decouverte)I<sup>e</sup> edition 1757.

(٢٤) محمد أفندي شلبي يرمسكز رجل مثقف مولع بالأدب الدربية والتركية والفارسية . قام بعدة مهام دبلوماسية وإدارية .

(25) SAINT-SIMON(Louis De Rouvray). Memoires complets et authentiques...sur le siècle de Louis XIV et la Régence.-Paris :Sautel, 1829 vol 18 p328.

(٢٧) سليم نزهت كرجك .- تاريخ الطباعة في تركيا : ١٧٢٩-١٩٢٩ ، ترجمة سهيل صابان .- الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٩٩٣ ص ٣٥ .

(٢٧) قدورة (وحيد) .- بداية الطباعة . . المصدر نفسه ص ١٨٣ .

(٢٨) حول أسباب عزوف المسلمين عن استعمال المطبعة ، انظر المصدر السابق ص ٧١-١١٤ .

- (٢٩) ورد نص تقاريط العلماء المسلمين العثمانيين على رسالة إبراهيم متفرقة في كتاب صحاح الجوهري الذي صدر باستانبول سنة ١٧٢٨ .
- (30) SIMONESCU(Dan).-"Impressions de livres arabes et karamanlis en Valachie et en Moldavie au XVIII<sup>e</sup> siècle" Studia et acta orientalis, n° 5-6, 1967, pp.50-51.
- (٣١) كتاب القدسات الثلاثة صدر ببوخارست سنة ١٧٠١ وكتاب الاورولوجيون سنة ١٧٠٢ .
- (٣٢) استناداً إلى تودوريني قد يكون متفرقة جلب عمالاً من ألمانيا .
- TODERINI(A.G).- De la littérature des Turcs.-Paris : Poinçot, 1789 t.3 p.21.
- (٣٣) طبع الأب هولدرمان كتاب النحو التركي (فرنسي - تركي) بغرض تعليم التركية للتجار الفرنسيين بالشرق .
- (٣٤) سليم نزهت كرجك .- تاريخ الطباعة . . . المصدر نفسه ص ٦٨-٦٩ .
- (٣٥) ورد ذلك مثلاً في مقدمة أول كتاب طبع في حلب (المزامير ١٧٠٦) حيث يقول دباس : إننا وفقنا إلى عمل طبع الحرف العربي -
- (٣٦) - ترجمة عبد الله الزاهر من إعداد تلميذه يواكيم مطران ، حسب مخطوط حريصا ، مجلة المسرة ، ١٩٤٨ ص ٣٨٧ .
- (37) BACEL(P).-"Abdallah zakher" Echos d'Orient,n° 11.1908. p.219. NASRALLAH(Jo-seph).-L'imprimerie au
- (38) Liban.-Beyrouth.-Harissa, 1949.-pp. 148-150.
- (٣٩) قدورة (وحيد) .- بداية . . . المصدر نفسه ، ص ١٥٤ .
- (٤٠) حاج (أثناسيوس) .- الرهبانية الباسيلية الشورية في تاريخ الكنيسة والبلاد .-جونية : مطبعة الكريم الحديثة ، ١٩٧٣ ج ١ ، ص ٥٥٠ .
- (٤١) سلك سلفستروس القبرصي طريقة سلفه أثناسيوس دباس نفسها إذ إنه اتصل بأمير رومانيا وطبع في جاسي قرب بوخارست خمسة كتب دينية (١٧٤٥-١٧٤٧) قبل أن ينشئ مطبعة بيروت . وكان رجل علم وأدب .
- (٤٢) نصر الله (جوزيف) .- مطابع الملكيين مجلة المسرة ١٩٤٨ ، ص ٤٥٠ .
- (٤٣) المصدر السابق .
- (٤٤) يؤكد ذلك الأب هولدرمان الذي عمل مع متفرقة عند طبع كتاب النحو التركي .
- Lettre du P.Holderman. Galata 5 aout 1730. Revue des bibliothèques,n° 36, 1926. p.6.
- (45) VOLNEY(C.F).-Voyage en Egypte et en Syrie.-Paris : La Haye-Mouton, 1959.-p.293-294, 1<sup>re</sup> édition Paris 1787.
- (46) "Lettre du P.Holderman...op.cit." p.10.
- (٤٧) شيخو (لويس) .- تاريخ فن الطباعة .المشرق رقم ٣ ، ١٩٠٠ ، ص ٤٦٠ .
- (48) TODERINI(A.G.).-De la litterature...op.cit. t.3, p.25.
- (٤٩) ورد في مقدمة كتاب السنوات الكناسي الصادر بالشوير عام ١٧٧٥ ما يأتي : لذلك جمعنا كتباً يونانية كثيرة وقابلنا النسخة العربية على تلك النسخ المستعملة في كنائس الروم مقابلة مضبوطة بغاية التدقيق .
- (٥٠) ذكر أثناسيوس دباس في مقدمة كتاب المواعظ المطبوع بحلب عام ١٧١١ أنه رأى مع تمادي الأيام وتخالف عقول الناسخين وعدم معرفتهم بمعاني الكتب وقوانين اللغة العربية قد وهى تركيبه (أي الكتاب) وتقوضت مبانيه ، ولأزيد (كذا) ما لا

- احتياج إليه ، ونقص ما تدعو الضرورة إليه . فتلافاه حينئذ بحسب الامكان ، وحذف ما زاد عن الواجب من الإعدادات المملة . . .
- (٥١) هذا ما حدث لكتاب ميزان الزمان الذي طبع بالشوير عام ١٧٣٤ ، فقد أعيدت ترجمته من الإيطالية إلى العربية .
- (٥٢) رسالة وسيلة الطباعة لإبراهيم متفرقة .